صدى النفوس

ورجع الصدى

في قصيدة فلسفية للدكتور شبلي بعث بها الى الهلال وقد ضمنها رأيهُ في اقتراح الهلال على الشعراء «ان الدين جزء من الوجدان واكبر تعزية لبني الانسان» وصدرها بمقدمة في الشعر والشعراء قال فيها

كانت املاها عليَّ اقتراح الهلال تكاد تكون غير مقفّاة ليس لها من رنة الرويّ ما تُلفتهُ الاسماع العادية من تناسب الوقع . والرويُّ للشعر العربي كالموسيقى للغناء . فان لم تبلغ في إجادة المبنى حدَّ الافادة في المعنى فهي لغير شاعر

شعر ليس لهُ من صناعة النظيم غير الوزن . عاطل من كل جمال الاَّ حلي الحقيقة ولكن الحقيقة فيما يقال ليس لها جمال الخيال . فان فعل في البعض فعل الوباء في الجرذ فالاطباء كالانبياء انما ارسلوا رحمة للعالمين

موضوع ينبو الفهم عنهُ وليس يلزم ان يكون سلباً . ولقد قال احد الحكماء اذا قرأت شيئاً ولم تفهمهُ فاخلص نعمك اولاً واحذر ان يخونك العلم اذا صدقك الفهم

صوت من بين ملايين ملايين الاصوات هل يجزع منهُ . وان لم يضرب على وترها فهل يفقدها لذة لفظها وهل تكدر نقطة صفاء البحر العظيم اذا وقعت فيهِ . وان كدرتهُ فما اعظم حمأتهُ

ما احلى الاماني لولا انها خيال شاعر وما امرّ الحقيقة لولا انها السبيل الى الرشاد

خواطر اوحت بها اليَّ تلك النفس الطاهرة ساحبة نفوس الشعراء[1] فقلت اين نفس القائل:

وان مديح الناس حقٌّ وباطلٌ ومدحك حقٌّ ليس فيهِ كذابُ
اذا نلت منك الودَّ فالمال هيِّنٌ وكل الذي فوق التراب ترابُ

من نفس القائل:

اقول لجبانٍ وقد صفرت لهُ وطابي ويومي ضيّق الجُحْر معمورُ
ها خطتا إمَّا اسارٌ ومنَّةٌ وإمَّا دمٌ والقتل بالحرّ اجدرُ
واخرى اصادي النفس عنها وانها لمورد حزم ان فعلت ومصدرُ

هذا قالهُ شاعر البداوة على قمة جبل يلقي عليك بهِ درساً عالياً في الاخلاق ولم يشهِ

(١) مقالة بهذا العنوان للمرحومة عفيفة كريمة الشيخ سعيد الخوري الشرتوني نشرت في المقتطف شهر مايو من هذه السنة

الإباء عن مأتى الخصافة والحزم لئلاً تكون السلابة القاصمة خرقاً في سياسة المنفعة

وذلك قالهُ شاعر الحضارة قائماً يسأل على اعتاب المدينة مع انهُ امير شعراء المولدين في صناعة النظم وكبر النفس

انت تستطيع ان تترجم شعر هوجو وموسه وروستان وتستفيد من ذلك غرضاً اجتماعياً وبحثاً ادبياً اخلاقياً وعبرة تاريخية . ولكنك لا تستطيع ان تترجم شعر المتنبي وابي تمام والبحتري ولا ان تستخلص منهُ شيئاً من ذلك غير بعض الحكم والامثال مشتتة في تلك الادغال لا رابط ينسقها . ولماذا ? لان هوجو اطلَّ في شعره على العالم اجمع فنظر الى الحقائق وبما لهُ من قوة الخيال وحسن السبك ربطها وكساها من شعره حلة مهيبة رهيبة في النفس كما كساها موسه رقة وجمالاً وروستان نظر الى الوقائع فاكسبها من قوة خياله ومتانة شعره وقعاً في النفوس جعلها ابلغ في العظة

فلو عني المتنبي واقرانهُ بالامور نظيرهم وقصدوا فيها الى مرامي اجتماعية عالية اكان خانهم خيالهم ? او ما كانوا فاتوا شعراء الافرنج في دقة الوصف وقوة التصوُّر وسعة الخيال . فعوضاً عن ان يجسِّطوا في ذلك الاسلوب الجاهليّ ويضعوا لنا ما اذا رُوي روى مطامع النفوس وظمأ العقول — بل عوضاً عن ان ينحوا النحو الذي نحاهُ بعدهم شعراء الافرنج في وصف الطبيعة الساكنة والناطقة وينزعوا الى اغراض اجتماعية استفرغ ذلك البذخ الذي عاشوا في وسطهِ واستهوت الخلاعة نفوسهم فأذلُّوا لها قرائحهم ونهجوا في شعرهم ذلك المنهج الغريب في المدح والغزل والتصابي والاستجداء حتى غلب هذا الاسلوب على صناعة الشعر العربي والتفتهُ الطباع واستسهلتهُ السلائق لعدم الارتباط فيهِ بقيد وصار جمالهُ لا يقوم الَّا بالاغراب في تلك المعاني المبتذلة

وكيف يترجم ردفٌ يقعد صاحبهُ كأنهُ كثيبان عانج وقلب يحرق بنارهِ الرجلين ويشب من الصدر الى العين . وقد رأيت قلباً خرج من تحت الابط في صدمة قطار ولكني لم ارَ قلباً تخطى سنن الطبيعة في خروجهِ من الجسم شوقاً

والشاعر العربي الذي يمكن ان يترجم اكثر شعره من غير ان تفقدهُ الترجمة جمالهُ هو شاعر الحقائق القائل

ما الخير صومٌ يذوب الصائمون لهُ ... ولا صلاةٌ ولا صوفٌ على الجسدِ
وانما هو ترك الشرّ مطَّرحاً ... ونفضك الصدر من غلٍّ ومن حسدِ
ما دامت الوحش والانعام خائفةً ... فرّماً فما صيح امر السلك للاسدِ

والقائل وقد زعموا هذه النفوس بواقيًا تشكل في اجسامها وتهذب
ولو كان يبقى الحس في شخص ميت لآثرت ان الموت في الناس اعذب

والذين يقولون هذا القول هم الذين يحبون الحياة اكثر من سواهم. والقائل:

كذب الظن لا امام سوى العق ل مشيرًا في صبحه والمساء
انما هذه المذاهب اسبا بٌ تجذب الدنيا الى الرؤساء

ولا شك ان ابا العلاء المعريّ هو ليلسوف الشعراء قاطبة واكثر شعراء العرب عقلًا وارجحهم عقلاً وهو الوحيد بينهم الذي ترفعت نفسهُ عن تلك الدنايا ومال عقلهُ عن صفاف القول الى الحقائق ومحاربة الضلال

لا اقول ذلك حطًّا من سليقة شعرائنا المولدين من متقدمين ومتأخرين فانهم رايم الحق اعلى الشعراء كعبًا في الصناعة واوسعهم خيالاً ولا اقول اسماهم . وانما اقول ذلك طعنًا في اسلوبهم العقيم المبتذل فانهم وقفوا تلك القرائح الجيدة على امور لا تفيد القارئ فائدة ادبيّة او اجتماعية او تاريخية ولو كتبوها شعرًا لخجلوا من دنّا نفوسهم وسخروا من اغراب عقولهم

ولعلهُ كان للمولدين من شعرائنا يدٌ ليست اقل شؤمًا من يد علماء الكلام في تقهقر التمدن العربي كما ان تلك الاشعار الحماسية في عصور الجاهلية واثرها في النفوس كانت سببًا لقيام دولة العرب في الاسلام وبزوغ تمدنها وبلوغها فيهِ الشأو الذي بلغتهُ

ولعلنا اليوم على فجر نهضة جديدة فاني أرى من بعض شعرائنا نزوعًا الى وضع الشعر في اسلوب يرمي الى غاية اجتماعية (١) ولا نعدم قرائح متوقدة من شعرائنا المطبوعين فانهم لا يلبثون طويلاً حتى يرونا منهم امثال هوجو وروستان وسواهم فان النظم طوع بنانهم فما عليهم الاّ ان يعملوا عقولهم ويجيلوا نظرهم في ما حولهم فلا تفتن الطبيعة عليهم بمكنوناتها والاجتماع باسراره والتاريخ بعبَرهِ ولا اقلّ من ان يدخلوا بنفوسهم الى اعماق نفوسهم

اما القصيدة فهاك بعض ابياتها مع اضافات اضافها اليها

فؤادك ما بين المنى والمنى يسائل ام ما في حجاك من الظما
اذا ما ترامى العقلُ يجلو حقائقًا شكا القلب ان الغبن في ذلك الجلا
وما الغبن الاّ ان يرى القلب هائمًا وتخفى على العقل الحقائق في الدنى

لقد قلت ان الدين ضربة لازبٍ وجزءٌ من الوجدان في اعمق الحشا

(١) اشارة الى ديوان خليل افندي مطران الذي صدر حديثًا

وإنا اذا لم نعبد الله ربنا عبدنا ولو إلاّ افتداهُ من سوى
فطوبى من الشمس المحيية بارقٌ يمزّق سجف الجسم ما كان ذا الصبا

ولو انت اهملت الروية لا الهوى لادركت ان النفس لا صوت بل صدى
صدى حبنا البقيا لحول حقيقة وزلفى دجا للذي يحفظ البقا
وماذا عزاء المرء من بعد موته اذا حبهُ للذات لم يدفع الاذى
وانّى لهُ دفع القضاء محتمٌ فلم يبقَ الاّ باسم الوهم مرتجى

هو الحبُّ اكسير الوجود بلا مرا ولولاهُ ما كان الوجود كما ترى
فكلٌّ الذي تلقاهُ في الكون سرُّهُ وهاديهِ في افعاله كيفما نحا
هو الحيُّ مولودًا هو الميت فانيًا هو النجم قدامي هو الصبح والدجى
هو الكلُّ في كلٍّ معيدًا ومبديًا وما نحن الاّ فيهِ من صوَر الفنا
وليس فناه ما نراهُ وانما هو المولد للاولى هو البعث للأُلى
تقضوا ليحيينا وانقضينا بعودنا النهم وغير الكل ليس لهُ البقا

وما الحب من ادنى فاعلى الى الرجا فما فوق الاّ الشوق في كبد السما
ترقى بنا حتى النعى وهو دونها كما في نيوب الليث اوفي حشى الصفا
حبينا الذي فينا حبينا رجاءنا حبينا الذي نرجو لكبٍّ لمقتنى
وهمنا بهِ في الارض طورًا وتارةً صعودًا الى ملكٍ وطورًا الى السما

عبدنا بهِ ربًّا شبيًا سماتهُ ويقضي ولا ردٌّ ويقضي كما يشا
رجوناهُ رحمانًا قصدناهُ عادلاً خشيناهُ جبارًا كذلك اذا عنا
دعونا اليهِ الناس بالحلم والتقى دعوناهم بالنار والسيف في القلى

فان كان هذا الميل حدسي تقوصنا رُوَيدك ان الكائنات بهِ سوا
فأين مكان النفس فيها من القوى واين تبي العالمين الى المدى

وان كان كالوجدان غير مفارق فلم لا نراهُ في جميع بني الورى
ووجداننا هل انت ألفيت انهُ يقوم بغير الجسم ان حُزِما استوى
ألم ترَ انّا فيهِ تحت طوارئهِ نعدُّ فيها او نُعَدُّ لهُ الرقى